رسالتي للشَّرقِ والغربِ

عبد الرَّحمن محمَّد حسن سِوار الذَّهب(*)

أصحابَ المَعالي والسَّعادةِ، السَّيِّداتُ والسَّادةُ: السَّلامُ عليكم ورحمةُ اللَّهِ.

إنَّه لمِن دَواعي سُروري أن أكونَ بينَكم اليومَ في هذا المَحفَلِ الهامِّ، وأشكرُ جمعيَّةَ «سانت إيجيديو» الَّتي مَنحَتني هذه الفرصةَ لزيارةِ هذه المدينةِ الجميلةِ، ومخاطبةِ هذا المُلتقى المتميِّزِ، والَّذي يَنعقِدُ مِن أجلِ مُناقشةِ موضوعٍ مُهِمٍّ، ليسَ للعالَمِ الإسلاميِّ والمسيحيِّ فقط، وإنَّما للبشريَّةِ جمعاءَ؛ وهو موضوعُ حوارِ الحضاراتِ بينَ الشَّرقِ والغربِ.

والحمدُ للَّهِ بدءًا أنَّنا تَوافَقنا أن نُسمِّيَهُ حِوارًا، بعدَ أن حاوَلَ هُواةُ الفِتَنِ والمواجهاتِ الخاسرةِ أن يُسمُّوهُ صراعَ حضاراتٍ، في إشارةٍ واضحةٍ إلى أن البشريَّةَ لن تعيشَ إلَّا في جوٍّ مِن المواجهةِ والعِراكِ، الَّذي يَسُودُ فيه طَرَفٌ؛ فَيَفرِضُ رُؤيتَهُ على الآخَرِينَ قَهرًا.

وتلك رؤيةٌ لن تُحقِّقَ السَّلامَ ولا الأمنَ والاستقرارَ الَّذي نَرجُوهُ للعالَمِ، بل تَنقُلُ المجتمعَ البشريَّ مِن صراعٍ إلى صراعٍ، وتجعَلُ الكونَ كلَّه ساحةَ مواجهةٍ وعِراكٍ لا يَنتهي.

وإنَّ مناقشةَ هذا الموضوعِ الهامِّ -في تَقديري- تحتاجُ في المَقامِ الأوَّلِ أن نَطرَحَهُ بصراحةٍ تامَّةٍ، ونَتناوَلَهُ بعَقلانيَّةٍ وانفتاحٍ، الغرضُ منه استِجلاءُ الحقائقِ، وتوضيحُ المواقفِ، والبحثُ عن القاسِمِ المشترَكِ الَّذي يُوجَدُ بينَنا، ويَدفَعُنا للعملِ معًا مِن أجلِ عالَمٍ يَسُودُ فيه السَّلامُ والاستقرارُ، ويكونُ التَّنوُّعُ والتَّعدُّدُ فيه ثَراءً للمَوروثِ البشريِّ، وليسَ خلافًا يَدعو إلى التَّشتُّتِ والجفاءِ.

إنَّنا في العالَمِ الإسلاميِّ خاصَّةً وفي الشَّرقِ عامَّةً، ننظُرُ بقلقٍ شديدٍ إلى النَّسَقِ المُتنامِي في الغربِ، والَّذي يَصِفُ الإسلامَ؛ ذلك الدِّينُ العظيمُ السَّمحُ والخاتَمُ، بأنَّه دِينُ تطرُّفٍ وإرهابٍ، يَدعو إلى الفَوضى، ويُشجِّعُ على سفكِ الدِّماءِ.

ويَزدادُ هذا الأمرُ سوءًا معَ تصاعُدِ مَوجةِ الإسلاموفوبيا، والخوفِ مِن الإسلامِ في الغربِ، وقد تطوَّرَت هذه الظَّاهرةُ بشكلٍ مُطَّردٍ مِن مجرَّدِ حَملاتِ ازدراءٍ وتعنيفٍ ضدَّ المسلمين في الغربِ عامَّةً، والنِّساءِ المسلماتِ خاصَّةً، إلى أن أصبحَت تيَّارًا شعبيًّا، يتشكَّلُ في مجموعاتٍ بعَينِها في عِدَّةِ دُوَلٍ غربيَّةٍ، وأصبحَ هذا التَّيَّارُ يُجاهِرُ بعَدائِهِ غيرِ الموضوعيِّ للإسلامِ والمسلمينِ.

وازدادَت وتيرةُ هذه الحملةِ معَ تَنامي إقبالِ المواطنين في الغربِ على اعتناقِ الإسلامِ الَّذي وَجَدُوا فيه -رغمَ الحَملاتِ الجائرةِ الَّتي تُنظَّمُ ضدَّه- أنَّه الدِّينُ الأقربُ إلى الفِطرةِ البشريَّةِ والَّذي يُشبِعُ مُتطلَّباتِ الرُّوحِ والجسدِ معًا، في مجتمعٍ طَغَت فيه الشَّهَواتُ المادِّيَّةُ حتَّى فاضَت.

إنَّ مِثلَ هذه النَّظرةِ وهذا التَّعامُلِ معَ دِينٍ عظيمٍ كالإسلامِ لن تَصُبَّ في خانةِ تعزيزِ حوارِ الحضاراتِ، بل ستُعزِّزُ نَهجَ المواجهةِ والصِّراعِ، وهذا تحدٍّ حقيقيٌّ يُواجِهُ لقاءَنا هذا، ويحتاجُ إلى حِكمتِنا ورُؤيتِنا المتجرِّدةِ مِن أجلِ تَصويبِهِ.

وبالمُقابِلِ؛ فإنَّ الغربَ يَنظُرُ بقلقٍ شديدٍ أيضًا إلى تَنامي ظاهرةِ التَّطرُّفِ في العالَمِ الإسلاميِّ، والَّتي تجلَّت في السَّنواتِ الأخيرةِ في عدَّةِ حَرَكاتٍ، تبَنَّتِ الفِكرَ الجِهاديَّ مِن غيرِ فَهمٍ عميقٍ للفِكرِ الإسلاميِّ.

وفي الواقعِ؛ فإنَّ ظهورَ مِثلِ هذه الحَرَكاتِ ليسَ جديدًا في العالَمِ الإسلاميِّ، وإذا نَظَرنا في التَّاريخِ الإسلاميِّ نجدُ كثيرًا مِن هذه الحَرَكاتِ الَّتي ارتبَطَ ظهورُها بفَتَراتِ الانحطاطِ والتَّراجُعِ الفِكريِّ والاقتصاديِّ في العالَمِ الإسلاميِّ.

وقد أَفرَدَ كثيرٌ مِن المفكِّرينَ المسلمين مُصنَّفاتٍ كبيرةً في توصيفِ هذه الحَرَكاتِ والفِئاتِ، وفَصَّلُوا كثيرًا في المِلَلِ والنِّحَلِ الَّتي تَوالَت على بلادِ المسلمين في عهودِ التَّراجُعِ الفِكريِّ، وضَعفِ حركةِ الاجتهادِ والتَّجديدِ.

وأيًّا كانَتِ الأسبابُ والدَّوافعُ الَّتي وَلَّدَت حالةَ الارتباكِ الفِكريِّ الحاليِّ؛ فإنَّنا نحتاجُ اليومَ قبلَ غدٍ أن نُوقِدَ شمعةً للحِوارِ بدلًا مِن أن نَلعَنَ التَّشرذُمَ والصِّراعَ؛ ومِن هنا تَأتي أهمِّيَّةُ هذا اللِّقاءِ الَّذي يَفرِضُ علينا تحدِّيًا كبيرًا بأن نَخرُجَ برؤيةٍ مُشترَكةٍ تُعزِّزُ مسيرةَ الحِوارِ المُشترِكِ بينَ الغربِ والشَّرقِ، وفي سبيلِ الوصولِ الآمِنِ لهذه الرُّؤيةِ المُشترَكةِ، فإنَّنا نحتاجُ إلى الآتي:

الفَهمُ الصَّحيحُ للأديانِ كلِّها، باعتبارِها أسمى موروثٍ بشريٍّ، فنحنُ نَرُدُّ أديانَنا ومُعتقداتِنا إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، واللهُ تعالى هو السَّلامُ، وبالضَّرورةِ فإنَّ كلَّ الأديانِ والمُعتقَداتِ السَّمحةِ تَدعو إلى السَّلامِ وتَحُضُّ عليهِ، وبذلك فَلَيسَ مَنطقيًّا أن نَصبُغَ دِينَنا بعَينِهِ بأنَّه إرهابيٌّ أو مُتخلِّفٌ أو مُتطرِّفٌ.

وفي سبيلِ الوصولِ إلى رؤيةٍ مُشترَكةٍ فإنَّنا مُحتاجُونَ بالضَّرورةِ أن نُركِّزَ على ما يَجمَعُ بينَنا، وهو كثيرٌ واضحٌ، وأن نَتجاوَزَ عن نِقاطِ الخلافِ وهي قليلةٌ وضيِّقةٌ، وأعتقدُ أنَّ هذه المقارَنةَ الإيجابيَّةَ ستَدفَعُنا إلى أن نكونَ أقربَ إلى بعضِنا البعضِ، وأن يَعرِفَ بعضُنا بعضًا بشكلٍ أفضلَ، والتَّعرُّفُ يُذيبُ كثيرًا مِن جليدِ الشُّكوكِ.

وأخيرًا: أَختِمُ بما بَدَأتُ به، أن نَتناوَلَ الحديثَ، ونَتبادَلَ الأفكارَ والرُّؤَى بحرِّيَّةٍ وصراحةٍ تامَّةٍ، تَمسَحُ ما عَلِقَ بالأذهانِ والنُّفوسِ مِن سُوءِ فَهمٍ، وتَفتَحُ العقولَ والقلوبَ؛ لكي نُؤسِّسَ جميعًا لمرحلةٍ جديدةٍ مِن التَّعايُشِ والتَّناغُمِ والحِوارِ بينَ الأفكارِ والحضارةِ والثَّقافةِ؛ حتَّى يكونَ العالَمُ الَّذي نعيشُ فيه جميعًا جميلًا كما نُريدُ، سمحًا كما نَرجُو، ونَفسَحَ المجالَ للأجيالِ القادمةِ لكي تعيشَ في عالَمٍ يملأه السلام.

* * *